دراسة لبعض المسائل العقدية المتعلقة بالطب

(التوكل، القضاء والقدر، الصبر، الدعاء، العدوى)

دراسة

د. خالد بن عبدالله القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد؛؛

فمع تقدم العلوم لا سيما الطبية منه فإن الحاجة تتزايد لمعرفة الكثير من المسائل الشرعية المتعلقة بالطب، فهناك الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة بشقه الطبي، وهناك أحكام الجراحة ومسائل فقهية تتعلق بالطب والأطباء والمرضى لا سيما المستجدة منها كالاستنساخ وزراعة الأعضاء والتجميل، وقد كتب كثير من العلماء والباحثين عن هذه المسائل، وبحثنا هذا يتعلق ببعض المسائل العقدية المتعلقة بالطب كالقضاء والقدر، والدعاء والصبر والتوكل والعدوى وغيرها.

الدراسات السابقة: الدراسات في المسائل العقدية المتعلقة بالطب قليلة جدا، والموجود مباحث عامة في تلك المسائل العقدية أو كتابات متفرقة في بطون كتب العقيدة وشروح الحديث والتفسير مما يتعب طالب تلك المسائل.

وما وجدته من كتب تتناول المسائل العقدية الطبية كتاب توعية المرضى بأمور التداوي والرقى للدكتور محمد بن عبدالله الصغير (طبيب نفسي) جمع بعض المسائل وجمع معها مسائل أخرى، وركز على الاضطرابات النفسية الشائعة وتناول العلاج بالرقى كما تعرض لمسائل العين والمس والسحر ولم أجد الكتاب وإنما وجدت ملخص له في موقع الدكتور الإلكتروني (أرائك السلام).

والمسائل الشرعية المجموعة غالبها يتناول الأحكام الفقهية ومنها كتاب أحكام التداوي والحالات الميئوس منها للدكتور محمد علي البار (دار البار للنشر، جدة)، وأحكام الجراحة الطبية للدكتور محمد محمد الشنقيطي (نشر مكتبة الصحابة، جدة) وأصله رسالة دكتوراه، والفتاوى الشرعية في المسائل الطبية للشيخ عبدالله بن جبرين جمع إبراهيم الشثري (دار المسلم، الرياض) والأحكام الطبية المتعلقة بالنساء للدكتور محمد منصور (دار النفائس، الأردن) وبحوث في الفقه الطبي والصحة النفسية من منظور إسلامي للدكتور عبدالستار أبو غدة (دار الأقصى) والطبيب أدبه وفقهه للدكتور زهير السباعي والدكتور محمد علي البار (دار القلم، دمشق) كما عقدت مؤتمرات طبية متفرقة كثير، منها مؤتمر الكويت 1987م، برعاية المنظمة الإسلامية

للعلوم الطبية، كما في الكويت 1987م ندوة الرؤية الإسلامية لبعض الممارسات الطبية.

إضافة إلى قرارات المؤتمرات والهيئات والمجالس العلمية والفتاوى المنشورة للعلماء في هذه المسائل الفقهية.

فيأتي هذا البحث ليسد ثغرة في المسائل العقدية المتعلقة بالطب، وقد سلكت المنهج الاستقرائي لما في الكتاب والسنة موصولاً بالمنهج التحليلي، وقدمت بمعنى التداوي والشفاء ومفهومه اللغوي والنصوص الواردة في الحث عليه، ثم مسألة التوكل وهل تنافي التداوي، ثم القضاء والقدر، والحكم العديدة من وجود الأمراض، وأهمية الصبر على القدر وثمراته، ثم الدعاء وأهميته، وهل ينافي الصبر أو يرد القدر، وعلاقته بالمرضى، ثم مبحث العدوى بين الطب والشرع لإزالة توهم المعارضة بين الشرع والطب في هذه المسألة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً: الشفاء والتداوي

1-مفهوم الشفاء والدواء:

الشفاء في اللغة يطلق على كل ما يبرئ من السقم ويشفيه يعالجه ويبرأه، ويطلب له الشفا،ويطلق أيضاً على الدواء.

قال ابن فارس: "الشين والفاء والحرف المعتل يدل على الإشراف على الشيء يقال: أشفى على إذا أشرف عليه، وسمي الشفاء شفاءً لغلبته للمرض وإشفائه عليه".

الجمع: أشفية، أو أشاف جمع الجمع، والفعل شفاه الله من مرضه، واستشفى طلب الشفاء، وأشفيت إذا وهبت له دواء[1].

والمداواة هو العلاج، وداواه أي عالجه[2].

2-مشروعيته:

جاء في كتاب الله تعالى أن العسل شفاء للناس كما قال تعالى: [illegible][3].

وفي صحيح البخاري (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)[4].

في صحيح مسلم (لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله)[5].

وجاء في السنة (تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا داء واحد الهرم)[6] . وفي رواية (علمه من علمه وجهله من جهله)[7].

كما جاء في الصحيحين من حديث جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن اكتوي)[8].

---

1 (?) انظر: معجم مقاييس اللغة، لسان العرب، والقاموس المحيط، والنهاية في غريب الحديث والأثر، مادة شفى.

2 (?) انظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة دوا.

3 (?) سورة النحل، آية: 69.

4 (?) البخاري، كتاب الطب باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم (5354) .

5 (?) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب التداوي رقم (2204).

6 (?) أحمد (5/350) وابن حبان (5/462) وابن ماجه. (2/1137) والحاكم (4/220) وقال على شرط الشيخين.

7 (?) أحمد (4/278) وابن ماجه برقم (3438) وصححه الحاكم (4/196-197) ووافقه الذهبي، وصححه شعيب الأرناؤوط في زاد المعاد (4/13).

8 (?) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، برقم (5359) ومسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي برقم (2205).

وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه[9].

بل إن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في مـرض موته قـال: (هريقـوا علي من سـبع قـرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس)[2].

---

9 (?) مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء، برقم 2207.

2 (?) البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (4178).

ثانياً: التوكل وعلاقته بالتداوي

أولاً مفهوم التوكل:

التوكل هو: اعتماد القلب على الله في حصــول ما ينفع العبد في دينه ودنيــاه، ودفع ما يضــره في دينه ودنيــاه ولابد مع هــذا الاعتماد من مباشرة الأسـباب وإلا كـان معطل للحكمة والشـرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً[1].

وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه[2].

ويتضح بذلك أن التوكل عمل قلبي وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: التوكل عمل القلب[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله: إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته[4]. وأقوال السلف فيه متقاربة.

ثانياً: أهمية التوكل:

التوكل عبادة عظيمة بل عقيدة راسـخة لـدى المـؤمن، قـال سعيد بن جبير رحمه الله: التوكل جمـاع الإيمـان[5]. وذلك لما فيه من الاعتماد على الله والثقة به فهو ينبع من عقيـدة راسـخة لـذا جاء تكرر الأمر به في القرآن الكريم في آيات عديدة منهـا: قـول المولى سبحانه وتعالى لنبيه: [illegible][6]. وقوله تعـالى: [illegible][7] ويقول سبحانه: [illegible][8]. ويقول سبحانه: [illegible][9].

وجاء التوكل مع القدر في قوله تعالى: [illegible]

____

1 (?) زاد المعاد، ابن القيم، (4/15).

2 (?) هذا أجمع تعريف للتوكل ، ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم حديث رقم 49، ص: 530.

3 (?) مدارج السالكين، ابن القيم (2/96).

4 (?) جامع العلوم والحكم، ص: 531.

5 (?) جامع العلوم والحكم، ص: 532.

6 (?) سورة النمل، آية: 79.

7 (?) سورة الفرقان، آية: 58.

8 (?) سورة المزمل، آية: 9.

9 (?) سورة آل عمران، آية: 159.

ومقترناً بالصبر في قوله سبحانه في صفات المؤمـنين: [illegible][1] [illegible][2].

بل هو من أخص صفات المؤمنين، كما قال سبحانه وتعـالى: [illegible][3] ويقول سبحانه: [illegible][4].

وفي حديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب قال عليه الصلاة والسلام عنهم: (وعلى ربهم يتوكلون)[5].

كما أن من ثمـار المتوكل تحقيق مـرادات التوكل كما ذكـره المولى سبحانه: [illegible][6]. وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم تتوكلـون على الله حق توكله لـرزقكم كما يـرزق الطـير تغـدو خماصاً وتروح بطانا)[7]. وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قـال: (من قـال عند خروجه من المـنزل: بسم الله تـوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال ملـك: هـديت وكفيت ووقيت)[8].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم متوكلاً على الله سبحانه في كافة أحواله، وكان يلهج بذلك لسانه عليه الصلاة والسلام، فكان عند دخول المنزل يقول: (وعلى الله ربنا توكلنا)[9].

كما كان يقول في دعاء الاستفتاح: (وعليك توكلت)[10]. وفي عامة أدعيته صلى الله عليه وسلم حيث كان يقول في الصباح

---

1 (?) سورة التوبة، آية: 51.

2 (?) سورة النحل، آية: 42.

3 (?) سورة الأنفال، آية: 2.

4 (?) سورة الشورى، آية: 36.

5 (?) البخاري كتب الطب، باب الحلق من الأذى، رقم (5378). ومسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (218).

6 (?) سورة الطلاق، آية: 3.

7 (?) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (2344). وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (5254).

8 (?) أخرجه أبو داود (4/325). والترمذي (5/490). وصححه الألباني في صحيح الترمذي (3/151).

9 (?) أخرجه أبو داود (4/325). حسن إسناده ابن باز في تحفة الأخيار ص: 28، انظر حصن المسلم ص: 21.

10 (?) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله عز وجل: ومن الليل فتهجد به نافلة برقم (1069). ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (769).

(اللهم بك أصبحنا)[1] وفي المساء (اللهم بك أمسينا)[2] وعند النوم (اللهم إني أسلمت نفسي إليك)[3].

والمـريض يجب أن يعلم أن الأمـور كلها بيـده سـبحانه، ومنه الشفاء: [illegible][4]، ويتعلق به سبحانه وحده [illegible][5].

ثالثاً: التوكل لا ينافي التداوي والعمل بالأسباب:

التوكل هو اعتماد القلب علي المـولى سـبحانه وهو لا ينـافي الأخذ بالأسباب المأمور بها شرعاً، أو المأذون بها كالتـداوي، قـال ابن رجب رحمه اللـه: واعلم أن تحقيق التوكل لا ينـافي السـعي في الأسـباب الـتي قـدر الله سـبحانه وتعـالى المقـدورات بهـا، وجــرت سـنته في الخلق بـذلك، فـإن الله تعـالى أمر بتعـاطي الأسباب، مع أمره بالتوكل فالسعي في الأسباب بـالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال الله تعالى: [illegible][6] وقال تعالى: [illegible][7] وقال تعالى: [illegible][8][9].

وكان سيد المتوكلين عليه الصلاة والسلام يتدرع بالدروع في القتال، وفي الهجرة هاجر سراً، واختفى في الغار، كما أمر بالتداوي، وبالفرار من المجذوم كما سيأتي وقال: (إعقلها وتوكل)[10] وفي الحديث السابق (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير)[11] أثبت لها الغدو والرواح ولم تجلس في أعشاشها.

قال سهل التستري وهو يشير إلى قوم من الصوفية تركوا عمل الأسباب ظناً منهم بأنه ينافي التوكل: "من طعن في السعي والكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل

---

1 (?) أبو داود، باب ما يقول إذا أصبح برقم (5086). والنسائي، باب ثواب من قال حين يصبح وحين يمسي برقم (9836).

2 (?) النسائي، باب ما يقول إذا أمسى، برقم (10399). والترمذي، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى برقم (3391).

3 (?) البخاري، باب ما يقول إذا نام برقم (5954).

4 (?) سورة الشعراء، آية: 80.

5 (?) سورة النساء، آية: 81.

6 (?) سورة النساء، آية: 71.

7 (?) سورة الأنفال، آية: 60.

8 (?) سورة الجمعة، آية: 10.

9 (?) جامع العلوم والحكم، ص: 531.

10 (?) رواه الترمذي، باب اعقلها وتوكل حديث رقم (2549).

11 (?) رواه الترمذي باب التوكل على الله، برقم (2344). وابن ماجة، باب التوكل واليقين، برقم (4164). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (5254).

في طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والسعي سنته"[1].

وعلى ذلك فالأخذ بالأدوية لا تنـــافي التوكل لمن اعتمد على اللــه، وعلم أنه هو الشـافي، كما قـال سـبحانه وتعـالى: [2] وكما قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم اشف أنت الشـافي)[3] فمع وجـود هـذه العقيـدة الراسـخة في الاعتماد على الله ومعرفة أن الأمـور كلها بيـده وأن ما يعمل من تــداوي إنما هو أســباب بيــده ســبحانه، فــإن العمل بها مع تلك العقيدة الراسخة لا تنافي التوكل، وقد قال النبي صــلى الله عليه وسلم في الصحيح (لكل داء دواء)[4].

وقد سبقت الأحاديث السابقة[5] الآذنة أو الآمرة بالتداوي.

لو كان ثمة معارضة لما جاء الأمر به والإذن به في الأحـاديث السـابقة نعم الشـافي هو الله كما قـال سـبحانه: [6]. والتداوي سبب كما أن الرزاق هو الله [7]. وطلب الرزق مشـــــروع والله هــو المعلم [8] وطلب العلــم مشــــروع. والهــــادي هـو الله [9] والأخذ بأسباب الهداية أمر مشروع بل مطلوب. وهكذا ..

قال ابن حجر في شرح أحاديث التداوي: "وفيها إثبات الأسباب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره، وأنها لا تنجح بذواتها بل بما قدره الله تعالى فيها"[10].

وقد صنف أبو بكر أحمد بن محمد الخلال وهو من أئمة الحنابلة كتاب الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك من

---

1 (?) جامع العلوم والحكم، ص: 531.
2 (?) سورة الشعراء، آية: 80.
3 (?) رواه البخاري، باب رقية النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (5410).
4 (?) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التدواي، رقم (2204).
5 (?) انظر ص: 4-5 من هذا البحث.
6 (?) سورة الشعراء، آية: 80.
7 (?) سورة الذاريات، آية: 58.
8 (?) سورة البقرة، آية: 282.
9 (?) سورة الكهف، آية: 17.
10 (?) فتح الباري، (10/135).

مسائل الإمام أحمد، وبدأ بقول الإمام أحمد ينصح رجلاً بقوله: "الزم السوق تصل به الرحم"[1].

وفي هذا كله رد على غلاة الصوفية لمن زعموا أن حقيقة التوكل لا تتم إلا بترك الأسباب وقد عنون أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين بعنوان: "بيان الرد على من قال أن ترك التداوي أفضل بكل حال"، وذكر أنه أشبه بإزالة العطش بالماء والجوع بالخبز[2].

وهناك خلاف بين أهل العلم: هل الأولى ترك الدواء مع الصبر؟ أم التداوي؟ قال بعض أهل العلم الأولى التداوي كما كان عليه الصلاة والسلام يفعل، وقال آخرون إذا كان قادراً على الصبر فهو أولى، وكلا الحالين فإن التداوي إما مستحب أو مباح وأنه لا ينافي التوكل.

وأما ما ورد من أحاديث تـوهم ذلك مثل حـديث: (من اكتـوى أو استرقى فهو بريء من التوكل)[3].

وحـديث السـبعين ألف الـذين يـدخلون الجنة بلا حسـاب ولا عــذاب فقــال عليه الصــلاة والســلام في حقهم: (هم الــذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)[4].

وفي حديث (وأنهي أمتي عن الكي)[5].

فـالجواب: أن هـذه الأحـاديث أولاً ليست في التـداوي وإنما مخصوصة بالرقى والكي.

ثانيــاً: أنها معارضة بالأحــاديث الــواردة في الإذن في الكي الســابقة، والجمع أن الكي يُنهى عنه لما فيه من إحــراق بالنــار ويــؤذن فيه للضــرورة أو شــدة الحاجــة، ومن العلمــاء من جمع بالكراهة.

كما جاء الإذن بالرقية من حديث أنس حيث قــال: (رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم في الرقية من العين والحمـة)[6].

وقد جاء في صـحيح مسـلم بـاب اسـتحباب الرقية من العين

---

1 (?) أبو بكر أحمد بن محمد الخلال الحنبلي، الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل، ص: 25.

2 (?) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (4/90).

3 (?) رواه الترمذي باب ما جاء في كراهية الرقية، برقم (3489) وابن ماجه كتاب الطب، باب الكي، (2131) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم 6081.

4 (?) متفق عليه: البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره برقم (5378). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب برقم (218).

5 (?) البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، برقم 5356.

6 (?) البخاري، كتاب الطب، باب رقية العين والحية، برقم 2193.

وأورد في ما ثبت في صـحيحه: لما سـئل النـبي صـلى الله عليه وسلم عن الرقى وقالوا له: إنك نهيت عنها، فقال: (ما أرى بأسـاً من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه)[1].

وقوله صـلى الله عليه وسـلم: (لا بـأس بـالرقى ما لم يكن شركاً)[2].

فتصـرف الأحـاديث السـابقة الناهية عن الـرقى إلى الـرقى الشـركية أو حـال المتعلق بها دون الله سـبحانه وكـذلك المتعلق بالكي.

بل جـاء الأمر بالرقية كما في حـديث عائشة رضي الله عنها (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر أن يسترقى من العين)[3].

ومن العلماء من جمع في أحاديث الرقية بأن المنهي عنه هو طلب الرقية من الغـير، والجـائز هو رقية الإنسـان نفسه أو أن يرقيه غيره من غير طلب.

قال ابن تيمية – رحمه الله – تعليقاً على حديث لا يسـترقون أي لا يطلبون من أحد أن يـرقيهم، والرقية من جنس الـدعاء، فلا يطلبون من أحد ذلك ثم قال: وكان صلى الله عليه وسـلم يـرقي نفسه وغيره ولم يسترقي[4].

أما التـداوي فمشـروعيته واضـحة وهو يختلف عن الكي أو الاسترقاء وأكثر العلماء على مشروعيته. ويجب على المريض أن يعلم أن الـدواء سـبب نـافع وأن الشـافي هو الله وأن الـدواء لا يشفي اسـتقلالاً، ومن تعلق تعلقـاً كـاملاً بالـدواء فإنه يـدخل في المحذور.

وقال المازري – رحمه الله – احتج بعضـهم على أن التـداوي مكـروه، ومعظم العلمـاء على خلاف ذلـك، واحتجـوا بالأحـاديث الـواردة في منـافع الأدوية وبأنه تـداوى، وبأخبـار عائشة من كـثر تداويه[5].

وقال القرطبي – رحمه الله – بعد أن ساق أحـاديث التـداوي والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى وعلى إباحة التداوي والاسترقاء جمهور العلماء[6].

---

1 (?) مسلم، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والحمة، برقم 2199.
2 (?) مسلم، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن شرك، رقم 2200.
3 (?) البخاري، كتاب الطب، باب رقية العين، برقم (5406). ومسلم، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، برقم (2195).
4 (?) مجموع الفتاوى، (1/176).
5 (?) شرح النووي علي صحيح مسلم، (3/90).
6 (?) تفسير سورة النمل، آية: 69 (10/134).

وذكر ابن حجر – رحمه الله – وفي حـديث المـرأة السـوداء التي كانت تصرع كما في صحيح البخاري، وقد سألت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أن يـدع الله لهـا، فقـال عليه الصـلاة والسلام: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعـوت الله أن يعافيك، فقالت: أصبر) [1].

قال ابن حجر: وفيه دليل على جـواز تـرك التـداوي. وفيه أن علاج الأمـراض كلها بالـدعاء والالتجـاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير.

وفي البخاري أن النبي صلى الله عليه وسـلم لما جـرح يـوم أحد أخذ حصير فأحرقه فحسى به جرحه. قال العيـني في عمـدة القارئ في شـرح الحـديث: وفيه إباحة التـداوي لأن النـبي صـلى الله عليه وسلم داوى جرحه[2].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: إذا ثبت أن التداوي مباح بالإجماع، مندوب إليه عند بعض العلماء فلا يلتفت إلى قوم قد رأوا أن التداوي خارج من التوكل، لأن الإجماع على أنه لان يخرج من التوكل، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تداوى وأمر بالتداوي ولم يخرج بذلك من التوكل، ولا أخرج من أمره أن يتداوى بالتوكل[3].

قال النـووي في شـرح الحـديث في صـحيح مسـلم في قوله عليه الصلاة والسلام: (لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الـداء بـرئ بإذن الله)، وفي هذا الحـديث إشـارة إلى اسـتحباب الـدواء، وهو مذهب أصحابنا وجمهور السلف وعامة الخلف. قال القاضـي: في هذه الأحاديث جمل من علوم الـدين والـدنيا، وصـحة علم الطب، وجواز التطبب في الجملة، واستحبابه بالأمور المذكورة في هـذه الأحاديث الـتي ذكرها مسـلم وفيها رد على من أنكر التـداوي من غلاة الصوفية وقال كل شيء بقضاء وقدر فلا حاجة إلى التداوي، وحجة العلماء هذه الأحـاديث ويعتقـدون أن الله هو الفاعـل، وأن التـداوي هو أيضـاً من قـدر اللـه، وهـذا كـالأمر بالـدعاء، وكـالأمر بقتال الكفـار، وبالتحصن ومجانبة الإلقـاء باليد إلى التهلكة مع أن الأجل لا يتغير والمقادير لا تتأخر ولا تتقـدم عن أوقاتهـا، ولابد من وقوع المقدرات والله أعلم[4].

وقال ابن عبدالبر في شـرح حـديث (ما أنـزل الله من داء إلا أنزل له شفاء) في هذا الحـديث إباحة التعـالج وفيه بيـان أن الله

---

1 (?) فتح الباري، (11/253).
2 (?) عمدة القارئ، (3/181).
3 (?) تلبيس إبليس، ص: 287-288.
4 (?) شرح النووي على صحيح مسلم (14/441-442).

عز وجل هو الممرض والشافي وأنه لا يكون في ملكه إلا ما شاء وأنه أنزل الداء وأنزل الدواء وقدره وقضى به[1].

ثم قال: وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دافع داء الجـــوع والعطش والحر والـــبرد بأضـدادها. بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشـرة الأسـباب الـتي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قـدراً وشـرعاً وأن تعطيلها يقـدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة.

وبهذا يتبين أن التداوي لا ينافي التوكل مطلقاً.

هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أو تركه مع الصبر والتوكل؟

اختلف العلمـــاء في ذلـــك، فجمهـــور أهل العلم على إباحة التـــداوي وجـــواز تركه مع الصـــبر والتوكـــل، والحـــديث هنا عن الأفضل.

قال ابن رجب رحمه الله: فيه قولان مشهوران وظـاهر كلام أحمد أن التوكل لمن قوي عليه أفضل لحديث السبعين.

قـال الغـزالي في إحيـاء علـوم الـدين في كتـاب التوكـل: الأسباب المزيلة للمرض إلى ثلاثة أقسام:

-مقطـوع به كالمـاء المزيل لضـرر العطش، الخـبز المزيل لضرر الجوع.

-وإلى مظنـون كالفصد والحجامة وشـرب الـدواء المسـهل وسائر أبواب الطب.

-وإلى موهوم كالكي والرقية.

قال أما المقطـوع به ليس من التوكل تركـه، بل تركه حـرام عند خوف الموت.

وأما الموهـوم فشـرط التوكل تركه إذ به وصف رسـول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين، وأقواها الكي ويليه الرقية.

أما الدرجة المتوسـطة وهي المظنونة كالمـداواة بالأسـباب الظـــاهرة عند الأطبـــاء ففعله ليس مناقضـــاً للتوكـــل، بخلاف الموهـوم، وتركه ليس محظـوراً بخلاف المقطـوع، بل قد يكـون أفضل من فعله في بعض الأحـــوال وفي بعض الأشـــخاص، فهي على درجة بين الدرجتين[2].

ومن رجح التداوي قال إنه حال النبي صـلى الله عليه وسـلم كـــان يـــداوم عليه وهو لا يفعل إلا الأفضل وحمل على الـــرقى المكروهة[3].

---

1 (?) التمهيد، ابن عبدالبر، (5/264).
2 (?) انظر: إحياء علوم الدين، (4/383).
3 (?) انظر: جامع العلوم والحكم شرح الحديث رقم (49).

قال ابن الأثـير في النهاية بـاب الرقيـة: فأما العـوام فـرخص لهم في التداوي والمعالجات، ومن صبر على البلاء وانتظر الفرج من الله بالدعاء كان من جملة الخـواص والأوليـاء، ومن لم يصـبر رخص له في الرقية والعلاج والدواء[1].

ولا شك أن سنة النبي صـلى الله عليه وسـلم هي الأفضل لا سـيما مع شـكر نعمة الشـفاء والاسـتعانة على ذلك بطاعة الله سبحانه، ولكن ليس بـواجب، وهو لا شك فضـيلة لمن قـوي على الصـبر واحتسب الأجر لا سـيما في بعض الأمـراض الـتي ليست مخوفة كـأمراض الـبرد والإنفلـونزا والصـداع، فإنه يأخذ فضـيلة الصبر كما أنه يكتب له ما كـان يعمل صـحيحاً كما صح عن النـبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا مرض العبد أو ســافر كتب له ما كـان يعمل صـحيحاً مقيمـاً)[2]. وظفر بفضـيلة الصـبر، والأمر واسع بفضل الله تعالى.

1 (?) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (2/255).

2 (?) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يفعل في الإقامة، رقم (2834).

ثالثاً: الإيمان بالقدر

الإيمـان بالقـدر هو أحد أركـان الإيمـان السـتة كما جـاء في الحـديث: (الإيمـان أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخر والقدر خـيره وشـره)[1]. ويقـول سـبحانه: [illegible][2].

والقدر كما هو مقرر في كتاب الله وسنة رسـوله صـلى الله عليه وسلم وما ذكره عامة أهل السنة يتضمن أربع مراتب:

الأولى: علم الله سبحانه بكل شيء أزلاً جملة وتفصيلاً.

الثانية: كتابته سبحانه في اللوح المحفوظ مقادير كل شـيء، وقد جمع الله سبحانه هاتين المرتبتين في قوله سبحانه وتعالى: [illegible][3].

ويقول عليه الصلاة والسـلام: (كتب الله مقـادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)[4].

الثالثـة: مشـيئة وإرادة الله سـبحانه النافـذة، فما أراده الله كان وما لم يرد لم يكن، وما نراه في الكون من أحداث ومصائب إنما هو بمـراد الله سـبحانه وتعـالى وله حكمته في ذلـك، يقـول سـبحانه وتعـالى: [illegible][5] ويقـول: [illegible][6].

الرابعـــة: الخلق وهو أن الله خـــالق كل شـــيء، فهو علمه سبحانه وكتبه وأراده وأوجده وحده لا شريك له، يقول سـبحانه: [illegible][7] ويقول: [illegible][8] ويقول سبحانه وتعالى: [illegible][9] ويقول سبحانه وتعالى: [illegible][10].

فـإذا آمن العبد بالقـدر اطمئن لما يصـيبه من مصـائب ومنها الأمراض وذلك من عدة جوانب:

---

1 (?) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلم الساعة، برقم (50). مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، حديث رقم (1).

2 (?) سورة القمر، آية: 49.

3 (?) سورة الحج، آية: 70.

4 (?) رواه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، برقم (2653).

5 (?) سورة البروج، آية: 16.

6 (?) سورة يس، آية: 82.

7 (?) سورة الزمر، آية: 62.

8 (?) سورة لقمان، آية: 11.

9 (?) سورة فاطر، آية: 3.

10 (?) سورة القمر، آية: 49.

1-أن ما أصابه هو مقدور ومكتوب لا مفر منه، فلا يتحسر ولا يندم، كما قال سبحانه: [illegible] [1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابكَ شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[2].

2-أن يعلم أن الذي أصابه هو محبوبه سبحانه، وأنه اختار له ذلك لحكم عديدة[3]، فيصبر ويرضى بما قدره الله عليه سبحانه.

3-أن يعلم فضل الصبر والرضا على المصائب وأنه من الإيمان بالقدر وعظيم الأجر [illegible] [4] وأنه يجلب مرضاته سبحانه كما قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)[5].

هل التداوي يرد القدر؟

فالجواب أن المرض هو من قدر الله والشفاء كذلك، ومن أسباب الشفاء التداوي وهو أيضاً من قدر الله، وأن الله عز وجل قدر الأمور بأسبابها، وكما أن دخول الجنة، مقدر وكذلك العمل له سبب مقدر، وكذلك الدعاء لحصول المرادات وهو مقدر.

ففي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار. قالوا: يا رسول الله! ففيم العمل؟ أفلا نتكل؟ قال لا. اعملوا. فكل ميسر لما خلق له. ثم قرأ [illegible] [6])[7].

---

1 (?) سورة الحديد، آية: 22-23.

2 (?) رواه مسلم كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، حديث (2664).

3 (?) انظر: من حكم المرض وفوائده، ص: 29.

4 (?) سورة الزمر، آية: 10.

5 (?) رواه الترمذي، باب ما جاء في الصبر على البلاء (4/601) حديث رقم (2396). وابن ماجه، باب الصبر على البلاء (2/1338) حديث رقم (4031)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (285).

6 (?) سورة الليل، آية: 5-10.

7 (?) رواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، حديث رقم (2647).

والله سبحانه قدر الأمور وأسبابها، وهو سبحانه علم أزلاً بما يعمل العباد من أسباب وأعمال، وقدر الأمور وأسبابها، فلا يقل أحد أني سأرزق أولاد دون زواج، أو أحج دون سفر، أو أشبع دون أكل، ففي هذا تعطيل للأسباب التي سنها سبحانه، وكل ذلك مقدر ومكتوب. فيشرع لنا الأخذ بالأسباب والإيمان بالقدر والتعلق به سبحانه.

رابعاً: الصبر والمرض

الصبر:

الصبر المشروع هو حمل النفس على طاعة الله أو عن معصية، أو حبسها عن الجزع واللسان عن الشكوى والجوارح عن التسخط بلطم الخدود، أو شق الجيوب ونحوها عند المصائب.

حكم الصبر:

الصبر على الواجبات وعن المعاصي وعلى الأقدار واجب بنصوص كثيرة في القرآن تأمر به كما سيأتي، والصبر مستحب على المستحبات وترك المكروهات.

والرضا بما قدره الله سبحانه من المصائب منزلة مستحبة فوق منزلة الصبر[1].

أهمية الصبر:

قال الإمام أحمد رحمه الله: "ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً"[2]، قال ابن القيم رحمه الله: ونحن نذكر الأنواع التي سيق فيها الصبر وهي عدة أنواع:

أحدها: الأمر به كقوله: [illegible][3] وقوله تعالى: [illegible][4].

الثاني: النهي عما يضاده كقولـه: [illegible][5] وقوله تعالى: [illegible][6] وقوله سبحانه وتعالى: [illegible][7] وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يضاد الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به كقولـه: [illegible][8] فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابــع: الإخبــار عن مضــاعفة أجر الصــابرين على غــيره كقوله: [illegible][9] وقوله تعالى: [illegible][10] قـال سـليمان بن القاسـم: كل عمل يعـرف ثوابه إلا الصـبر، قـال الله

---

1 (?) انظر عدة الصابرين، ابن القيم، ص: 20-31.
2 (?) عدة الصابرين، ص: 73.
3 (?) سورة النحل، آية: 127.
4 (?) سورة الطور، آية: 48.
5 (?) سورة الأحقاف، آية: 35.
6 (?) سورة آل عمران، آية: 139.
7 (?) سورة القلم، آية: 48.
8 (?) سورة آل عمران، آية: 200.
9 (?) سورة القصص، آية: 54.
10 (?) سورة الزمر، آية: 10.

تعالى: [1] قال كالماء المنهمر.

الخـامس: تعليق الإمامة في الـدين به وبـاليقين قـال الله تعالى: [2] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

الســادس: ظفـــرهم بمعيــة الله سبحـــــانه لهم، قـــــال تعالى: [3] قـال أبو يعلى الـدقاق: فـاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته.

السابع: أنه جمع للصـابرين ثلاثة أمـور لم يجمعها لغـيرهم، وهي الصلاة منه عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم، قال تعـالى: [4] وقال بعض السلف وقد عزى على مصيبة نالته فقال: ما لي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها.

الثـامن: أنه سبحـــانه جعـــل الصبــر عونـاً وعـــدة وأمر بالاستعانة به، فقال تعالى: [5] فمن لا صبر له لا عون له.

التاسـع: أنه سـبحانه علق النصر بالصـبر والتقـوى، فقـال تعالى: [6] لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (واعلم أن النصر مع الصبر)[7].

العاشر: أنه سـبحانه جعل الصـبر والتقـوى جنَّة عظيمة من كيد العـدو ومكـره، فما اسـتجن العبد من ذلك جنة أعظم منهـا، قال تعالى: [8].

الحادي عشـر: أنه سـبحانه أخـبر أن ملائكته تسـلم عليهم في الجنة بصـبرهم، كما قـال سـبحانه: [9].

---

1 (?) سورة الزمر، آية: 10.
2 (?) سورة السجدة، آية: 24.
3 (?) سورة البقرة، آية: 153، والأنفال، آية: 46.
4 (?) سورة البقرة، آية: 155-157.
5 (?) سورة البقرة، آية: 45.
6 (?) سورة آل عمران، آية: 125.
7 (?) رواه أحمد في المسند (1/307). والحاكم في المستدرك (3/541-542) وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع برقم (6806).
8 (?) سورة آل عمران، آية: 120.
9 (?) سورة الرعد، آية: 23-24.

الثـاني عشـر: أنه سـبحانه أبـاح لهم أن يعـاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسـماً مؤكـداً غاية التأكيد أن صـبرهم خـير لهم، فقال: [illegible][1] فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بـالواو ثم بـاللام بعـده ثم بـاللام الـتي في الجواب.

الثالث عشر: أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبـير على الصبر والعمل الصالح فقال تعالى: [illegible][2] وهؤلاء ثنية[3] الله من نـوع الإنسـان المـذموم الموصـوف باليـأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هـذا الـذم إلا بالصـبر والعمل الصـالح، كما لا تنـال المغفـرة والأجر الكبـيرة إلا بهما.

الرابع عشر: أنه سـبحانه جعل الصـبر على المصـائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمـور الـتي إنما يعـزم على أجلها وأشرفها، فقال تعالى: [illegible][4] وقال لقمان لابنه: [illegible][5].

الخامس عشر: أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفـر، وهي كلمته التي سـبقت لهم، وهي الكلمة الحسـنى، وأخبـــر أنه إنما أنـالهم ذلك بالصـبر، فقـال تعـالى: [illegible][6].

الســادس عشــر: أنــه سبحـــــانه علق محبتـه بالصبـر وجعلها لأهلـه، فقـال سـبحانه: [illegible][7].

السـابع عشـر: أنه سـبحانه أخـبر عن خصـال الخـير أنه لا يلقاها إلاالصابرون، في موضـعين من كتابـه، في سـورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنـوا مثل ما أوتي [illegible][8] وفي سورة حم السجدة، حيث أمر

---

1 (?) سورة النحل، أية: 126.

2 (?) سورة هود، آية: 11.

3 (?) أي الذين استثناهم الله عز وجل.

4 (?) سورة الشورى، آية: 43.

5 (?) سورة لقمان، آية: 17.

6 (?) سورة الأعراف، آية: 137.

7 (?) سورة آل عمران، آية: 146.

8 (?) سورة القصص، آية: 80.

العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب، ثم قال: [1].

الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور، فقال تعالى: [2] وقال تعالى في لقمان: [3] وقال في سورة سبأ: [4] وقال تعالى: [5] فهذه أربعة مواضع في القرآن الكريم تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: [6] فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابراً، وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي فإنه بئس العبد.

العشرون: أنه سبحانه حكم بالخسران حكماً عاماً على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم، فقال تعالى: [7] ولهذا قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوتيه: قوة العلم وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وآخية ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر.

الحادي والعشرون: أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة، الذي قامت بهم هاتان الخصلتان،ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى:

---

1 (?) سورة فصلت، آية: 35.

2 (?) سورة إبراهيم، آية: 5.

3 (?) سورة لقمان، آية: 31.

4 (?) سورة سبأ، آية: 19.

5 (?) سورة الشورى، آية: 32-33.

6 (?) سورة ص، آية: 44.

7 (?) سورة العصر، آية: 1-3.

[1] وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصـفان والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسـام، وشـرهم من لا صبر له، ولا رحمة فيـه، ويليه من له صـبر ولا رحمه عنـده، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة، ولكن لا صبر له.

الثـاني والعشـرون: أنه سـبحانه قـرن الصـبر بأركـان الإسـلام، ومقامـات الإيمـان كلها فقرنه بالصـلاة كقوله تعـالى: [2] وقرنه بالأعمـال الصـالحة عموماً كقوله تعالى: [3] وجعله قرين التقوى كقوله تعالى: [4] وجعله قـرين الشكـر كقـوله تعالى: [5] وجعله قــرين الحق كقولــه: [6] وجعله قرين الرحمة كقوله: [7] وجعله قرين اليقين كقوله: [8] وجعله ســبب محبته ومعيته ونصــره وعونه وحسن جزائــه، ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً والله أعلم[9].

<u>مما يعين على الصبر:</u>

1-معرفة حكم المرض وفوائده[10].

2-معرفة المـريض أن الله مع الصـابرين، كما قـال سـبحانه وتعالى: [11]. ويتضمن ذلك عون الله سبحانه للصابر، وأنه خير عطية يمنحها الله العبد، وكما قال صلى الله عليه وسـلم: (ومن يسـتعفف يعفه اللــه، ومن يسـتغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطـاء خـيرا وأوسع من الصبر)[12].

3-معرفة أنه مقـــدر، وأن الله اختــــاره وأراده وكتبه وخلقه وارتضـــاه،

[1] (?) سورة البلد، آية: 17-18.
[2] (?) سورة البقرة، آية: 45.
[3] (?) سورة هود، آية: 11.
[4] (?) سورة يوسف، آية: 90.
[5] (?) سورة لقمان، آية: 31.
[6] (?) سورة العصر، آية: 3.
[7] (?) سورة البلد، آية: 17.
[8] (?) سورة الأحزاب، آية: 35.
[9] (?) عدة الصابرين، ص: 73-77.
[10] (?) انظر ص: 29.
[11] (?) سورة البقرة، آية: 153.
[12] (?) البخاري، باب قول الله تعالى وفي الرقاب، حديث رقم (1400) ومسلم كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، حديث رقم (1053).

﴿ [illegible] ﴾[13]

والمولى سبحانه له المنتهى في العلم والحكمة.

4-اليقين برحمة الله سبحانه وأن المرض من رحمة الله وأن الله أرحم بك من نفسك، وقد قال عليه الصلاة والسلام لما رأى امــرأة من الســبي تبتغى إذا وجــدت صــبيا في الســبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضـعته، فقـال لنا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: (أترون هذه المـرأة طارحة ولـدها في النـار) قلنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه، فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: (لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[1].

والمــرض مع الصــبر والاحتســاب له شــأن آخر حيث يقــول المولى سبحانه: ﴿ [illegible] ﴾[2].

5-التسـلي عمن هو أعظم منك بلاءً ومرضـاً، وقد قـال عليه الصلاة والسـلام: (انظـروا إلى من أسـفل منكم، ولا تنظـروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)[3].

6-النظر إلى زوال الدنيا وقــرب نهايتهــا، وأنها مليئة بالأكـدار والهمـوم، وأنها لا يسـلم منها أحـد، وأن العـبرة بـالآخرة الباقيـة، الـتي تنسي كل ما في الـدنيا والنظر إلى الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (يـؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقــال يا بن آدم هل رأيت خــيرا قــط، هل مر بك نعيم قــط، فيقول لا والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا بن آدم هل رأيت بؤســاً قط، هل مر بك شدة قط، فيقول لا والله يا رب ما مر بي بــؤس قط، ولا رأيت شدة قط)[4].

7-معرفة أهمية الصبر وفوائـده وثمراته[5]. لا سـيما مع البلاء وقد سبقت الآيـات القرآنية وكـذلك الأحـاديث الصـحيحة في ذلك منها:

في الصــحيحين من حــديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رســول الله صــلى الله عليه وســلم أتى على امــرأة تبكي على صــبي لهــا، فقــال لهــا: اتقي الله واصــبري، فقــالت: وما تبــالي

---

13 (?) سورة الحديد، آية: 22.

1 (?) رواه البخاري باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم (5653) ومسلم كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، حديث رقم (2754).

2 (?) سورة البقرة، آية: 157.

3 (?) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم (2963).

4 (?) رواه مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة، حديث رقم (2807).

5 (?) سقت الإشارة إليه ص: 19.

بمصـيبتي، فلما ذهب قيل لهـا: إنه رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، فأخذها مثل المـوت فـأتت بابه فلم تجد على بابه بـوابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفـك، فقـال صـلى الله عليه وسـلم: (إنما الصبر عند أول صـدمة)[1] وفي رواية (عند الصـدمة الأولى) وقوله الصـبر عند الصـدمة الأولى مثل قولـه: (ليس الشـديد بالصـرعة، إنما الشـديد الـذي يملك نفسه وقت الغضـب)[2] فـإن المصـيبة إذا أتت بغتة لها روعة تزعـزع القلب وتزعجه بصـدمها، فإن صبر للصدمة الأولى وانكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصـبر، وأيضـاً فـإن المصـيبة تـرد على القلب وهو غـير موطن لها فتزعجه وهي الصـدمة الأولى، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك تـوطن لها وعلم أنه لا بد لها منها فيصـبح صـبره شـبيه الاضطرار، وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدي عليها شيئاً جـاءت تعتـذر إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم كأنها تقـول: قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سـمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقـول ما أمره الله: إنه لله وإنا إليه راجعـون، الله أجـرني في مصـيبتي وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها)[3]. قـالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سـلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسـوله، أرسل إليَّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حـاطب بن أبي بلتعة يخطبـني لـه، فقلت: إن لي بنتـاً وأنا غيـور، فقـال: أما بنتها فـأدعو الله أن يغنيها عنهـا، وأدعو الله أن يـذهب بالغيرة، فتزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي صحيح البخـاري من حـديث أنس أن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم قال: (إذا ابتليت عبـدي بحبيبتيه ثم صـبر عوضـته منهما الجنة)[4] يريد عينيه. وعند الترمذي في الحديث: (إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة)[5].

---

1 (?) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب ما ذكر أن النبي لم يكن له بواب (13/142) وفي الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى (3/205) وباب زيارة القبور (3/177) ومسلم كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى رقم (14، 15) .

2 (?) رواه البخاري، في الأدب المفرد، باب الحذر من الغضب (10/535) ومسلم في البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب رقم (107، 108).

3 (?) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (3، 4، 5).

4 (?) رواه البخاري كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره (10/120).

5 (?) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في ذهاب البصر رقم (2400) وأحمد في المسند (3/283) عن أبي أمامة، والسيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالحسن (1/78) وصححه الألباني انظر صحيح الجامع رقم (1904).

وفي صحيح البخاري عن عطـاء بن أبي ربـاح قـال: قـال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنـة؟ قلت: بلى قـال: هـذه المـرأة السـوداء أتت النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقـالت: (يا رسـول الله إني أصـرع وإني أتكشـف، فـادع الله لي، قـال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فـدعا لها)[1].

وفي الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: (إذا مـرض العبد بعث الله إليه ملكين: فقال: انظرا عبدي ماذا يقول لعواده: فإن هو إذ جـاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم، فيقول: إن لعبـدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته)[2].

وفي الصـحيحين من حـديث الزهـري بن عـروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مصـيبة تصـيب المسـلم إلا كفر الله بها عنه حـتى الشـوكة يشاكها)[3].

وفيهما أيضـاً من حـديث أبي سـعيد وأبي هريـرة عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (ما يصـيب المسـلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حـزن ولا أذى ولا غم حـتى الشـوكة يشـاكها إلا كفر الله بها خطاياه)[4].

وفي المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (لا يـزال البلاء بـالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)[5].

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قـال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك وعكاً شـديداً، قال: فقلت: (يا رسول الله إنك لتوعك وعكـاً شـديداً قـال: نعم، والذي نفسي بيـده ما علي الأرض مسـلم يصـيبه أذى من مـرض

---

1 (?) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح (10/119).

2 (?) مالك في الموطأ في العين، باب ما جاء في أجر المريض، (5).

3 (?) رواه البخاري كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المريض (10/107) ومسلم كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن، رقم (49).

4 (?) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المريض (10/107) ومسلم كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن رقم (52).

5 (?) الترمذي كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال حديث حسن صحيح رقم (2399) وأحمد في المسند (2/287، 450) وابن حبان في صحيحه رقم (2913) والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي (1/346).

فما سواه إلا حط الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة ورقها)[1].

وعن أبي سعيد رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر)[2].

وعند البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يرد الله به خيراً يصب منه)[3].

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: (الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة)[4].

<u>من حكم المرض وفوائده:</u>

المرض مكروه لكثير من الناس لأنه اختلال الصحة، ولما يتضمنه من تعب وألم وعجز، ولكن الله قدره لحكم عظيمة، بل وفوائد جليلة يعود في كثير منها إلى المريض نفسه وكما قال الله تعالى: [illegible][5] منها:

1-أن فيه تكفير للذنوب، ومحو السيئات كما قال عليه الصلاة والسلام: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه)[6]، بل حتى أهل المريض يشاركون في الأجر لما يقتضيه ذلك منهم من آلام نفسية، يقول عليه الصلاة والسلام: (لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)[7]. وقال عليه الصلاة والسلام: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء)[8].

وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دخل على أم السائب أو

---

1 (?) رواه البخاري كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاءً الأنبياء (10/116) ومسلم كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه رقم (45).

2 (?) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، حديث رقم (1644) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (2/1012) برقم (5812).

3 (?) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ماجاء في كفارة المرض برقم (5321).

4 (?) رواه الإمام أحمد في مسنده، (1/172) برقم (1418).

5 (?) سورة النساء، آية: 19.

6 (?) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المريض (10/107) ومسلم كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن رقم (52).

7 (?) الترمذي كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال حديث حسن صحيح رقم (2399) وأحمد في المسند (2/287، 450) وابن حبان في صحيحه رقم (2913) والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي (1/346).

8 (?) رواه الترمذي، باب ماجاء في الصبر على البلاء، حديث رقم (2396).

أم المسيب فقال مالك يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين قالت الحمى لا بارك الله فيها فقال لا تسبى الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد)[1].

2-ومن فوائد المرض للصابرين المؤمنين أنه يجلب الخير لصاحبه (من يرد الله به خيراً يصب منه)[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: (إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)[3] فالمرض يستخرج به شكر الله على نعمة العافية والصبر.

3-ومن فوائد المرض رفعة في درجات المؤمنين، فإن كان للعبد منزلة في الجنة لم يدركها بعملها، ابتلاه الله في جسده، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها)[4].

4-ومن فوائد المرض معرفة نعمة الصحة فالأمور تعرف بأضدادها، فمن لا يعرف المرض لم يقدر الصحة، ومن ثم شكر الله على نعمة الصحة، فيستكمل الخيرية التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[5].

5-ومن فوائد المرض أنه يسبب إيقاظ العبد من غفلته وتذكره بالعودة إلى الله عز وجل والإنابة إليه والتعلق به، وكثير من الناس لا يعود إلى الله إلا مع الشدائد، يقول المولى سبحانه وتعالى: [illegible][6] ويقول سبحانه: [illegible][7] ويقول أيضاً: [illegible][8].

6-ومن فوائد المرض ذهاب الفخر والعجب والكبر والبطر عن الإنسان، ومعرفة قدره، وظهور ضعفه حاجته وذلته.

---

1 (?) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض وحزن رقم (2575).

2 (?) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ماجاء في كفارة المرض برقم (5321).

3 (?) رواه الترمذي، باب ما جاء في الصبر على البلاء (4/601) حديث رقم (2396). وابن ماجه، باب الصبر على البلاء (2/1338) حديث رقم (4031).

4 (?) رواه ابن حبان (7/169) حديث رقم (2908). وابن أبي يعلى في مسنده (10/482) حديث رقم (6095).

5 (?) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير برقم (2999).

6 (?) سورة فصلت، آية: 51.

7 (?) سورة الزخرف، آية: 48.

8 (?) سورة السجدة، آية: 21.

7-ومن فوائد المرض استخراج عبودية الضراء وظهور أنــواع من التعبد لم تكن لولا المرض من الخشية والصبر والدعاء.

8-ومن فوائد المـرض أن وسـيلة للنجـاة من النـار، عن أبي هريـرة قـال عـاد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم مريضا من وعك كان به ومعه أبو هريرة فقال النبي صـلى الله عليه وسـلم: (أبشر فإن الله يقول هي ناري أسـلطها على عبـدي المـؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة)[1].

[1] (?) رواه الترمذي، باب (35) (4/412) حديث رقم (2088). وابن ماجة باب الحمى (2/1149) حديث رقم (3470). والحاكم في المستدرك (1/496) حديث رقم (1277).

خامساً: المرض والدعاء

دعاء الله سبحانه بمعناه الواسع يشتمل على تمجيد المولى سبحانه بأسمائه وصفاته وحمده وتسبيحه [illegible][1] وهذا أعظم ما في الدعاء لذا قال عليه الصلاة والسلام: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)[2]. ويشتمل على فقر السائل وحاجته، كما يشتمل السؤال المباشر وهو الطلب بقضاء الحاجات.

ولذا تضمنت أدعية النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأنواع الثلاثة كما في سيد الاستغفار: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[3]. والدعاء من أعظم العبادات، وهو متضمن لتمجيد الله سبحانه كما هو متضمن للخضوع والذل والامتناع عن دعاء الله سبحانه موجب لسخطه وعقابه كما قال سبحانه وتعالى: [illegible][4] فبدأ في الأول بالدعاء وفي الأخير بالعبادة، لكون الدعاء من أهم العبادات، لذا قال سبحانه: [illegible][5]. والدعاء من أعظم الأسباب في جلب مرادات الدنيا والآخرة، وقد قال المولى سبحانه وتعالى: [illegible][6] وقوله سبحانه وتعالى: [illegible][7]. وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين)[8].

---

1 (?) سورة الأعراف، آية: 180.

2 (?) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة، رقم (3655) وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (3274).

3 (?) رواه البخاري، باب أفضل الاستغفار، رقم (5947).

4 (?) سورة غافر، آية: 60.

5 (?) سورة الجن، آية: 18.

6 (?) سورة غافر، آية: 60.

7 (?) سورة البقرة، آية: 186.

8 (?) رواه الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله، رقم (3627)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (1757).

كما أن الدعاء له من المنافع الروحية على الأنفس من الطمأنينة على القلوب ما لا يقدره إلا من عرفه مما له أبلغ الأثر في سعادة النفوس وتحملها للآلام والمرض، كما أثبتت الدراسات المادية دور الدعاء في الشفا، كما أكدت ذلك دراسة في مستشفى سانت لوك في مدينة كانساس الأمريكية، وقد شملت الدراسة (1000) مريض حديثي الإصابة بأمراض القلب في المستشفى، وخرجت الدراسة أن المتجهين إلى الله بالدعاء كانوا أفضل حالاً من غيرهم، وأن الدعاء مساعد فعال للعلاج الطبي، وقد نشرت الدراسة في أرشيف أبحاث المستشفى 25/10/1999م، وعملت بشكل حيادي وبدقة كبيرة[1].

ودعاء الله سبحانه هو هـدي أنبيـاء الله ورسـله وأوليائـه، فها هو أبونا آدم عليه السلام يقول: [illegible][2]. وهذا نوح عليه السلام يقول: [illegible][3]، وها هو إبـراهيم عليه السـلام يقـول: [illegible][4]. ويدعو عليه السلام: [illegible][5]، وها هو سليمان عليه السلام: [illegible][6]، وها هو موسى عليه السلام يدعو الله: [illegible][7].

وها هو نبي الله أيـوب عليه السـلام: [illegible][8] وقال تعالى: [illegible][9] وها هو زكريا عليه السـلام يـدعو اللـه: [illegible][10]، بل الرب سبحانه يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالدعاء: [illegible][11]

---

1 (?) موقع إسلام أون لاين، في صفحة أهم الأخبار 5/6/1421هـ، نقلاً عن موقع مايكروسوفت.
2 (?) سورة الأعراف، آية: 23.
3 (?) سورة القمر، آية: 10.
4 (?) سورة مريم، آية: 48.
5 (?) سورة إبراهيم، آية: 40.
6 (?) سورة النمل، آية: 19.
7 (?) سورة طه، آية: 25-28.
8 (?) سورة الأنبياء، آية: 83.
9 (?) سورة ص، آية: 41.
10 (?) سورة آل عمران، آية: 38.
11 (?) سورة طه، آية: 114.

وقوله: [illegible][1]. وقوله سبحانه: [illegible][2].

والـدعاء للمرضى وسـؤال المـولى سـبحانه هو سـنة النـبي صــلى الله عليه وســلم إذ هو الشــافي ســبحانه، حيث كــان من دعائه عليه الصلاة والسلام عند عيادة المرضى (اللهم رب الناس أذهب البـأس اللهم أنت الشـافي لا شـفاء إلا شـفاؤك شـفاءً لا يغادر سـقماً)[3] وهـذا حـري بكل من زار مريضـاً وكـذلك الأطبـاء يدعون لمرضـاهم بالشـفاء فإنه لا يقل أثـراً عن الأدوية الماديـة، ودعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مجابة كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، والمريض حـري به أن يـدرك ويـوقن أن الأمـور بيــده ســبحانه وأنه هو الشــافي وقد قــال الخليل عليه الصــلاة والسلام: [illegible][4] وما الأدوية والأدعية والأغذية إلا أســباب وظــواهر والــواجب التعلق بــرب الأســباب ودعائه سبحانه.

وكان مما شرعه عليه الصلاة والسلام لأمته في كل صلاة أن يدعو بين السجدتين: (اللهم اغفر لي وارحمني وعافني واهدني وارزقني واجبرني)[5]. وكان صلى الله عليه وسلم يدعو: (اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجزام ومن سيء الأسقام)[6].

قال أنس رضي الله عنه لمن يشتكي مرضاً ألا أوصيك برقية رســول الله صــلى الله عليه وســلم (اللهم رب النــاس مــذهب البــأس اشــفي أنت الشــافي لا شــفافي إلا أنت شــفاءً لا يغــادر سقماً)[7].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رســول الله صــلى الله عليه وسلم كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: (اللهم رب

1 (?) سورة المؤمنون، آية: 97-98.

2 (?) سورة المؤمنون، آية: 118.

3 (?) رواه البخاري، كتاب الطب، باب دعاء العائد للمريض، رقم (5351). ومسلم كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (2191).

4 (?) سورة الشعراء، آية: 80.

5 (?) رواه الترمذي، باب ما يقول بين السجدتين، رقم (284). وابن ماجه، باب ما يقول بين السجدتين، رقم (298) وصححه الألباني في الجامع الصحيح برقم (1281).

6 (?) رواه أبو داود كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، برقم 1553)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (1281).

7 (?) رواه البخاري، كتاب الطب، باب دعاء العائد للمريض، رقم (5351). ومسلم كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (2191).

الناس أذهب البأس اشف اشفه أنت الشافي لا شفاء إلا شـفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً)[1]. لا يغادر سقماً: أي لا يترك مرضاً.

قال في مرقاة المفـاتيح في تعليقه لا شـفاء إلا شـفاؤك فيه إشارة إلا أن كل ما يقع من داء والتـداوي لا ينجح إن لم يصـادف تقدير الله.

وقال الطيبي لا شفاء خـرج مخـرج الحصر تأكيـداً لقوله أنت الشافي لأنه تدبير الطـبيب ودفع الـدواء لا ينجح في المـريض إذا لم يقدر الله الشفاء.

عن عائشة رضي الله عنها أن رســول الله صــلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، قـالت: فلما اشــتد وجعه كنت أنا أقــرأ عليه وأمسح عليه بيمينه رجــاء بركتها[2].

وقد استشكل على البعض الدعاء للمريض بالشفاء مع ما في المرض من كفارة الذنوب والثواب كما تضافرت الأحاديث والجواب أن الدعاء عبادة لا ينافي الثواب والكفارة لأنهما يحصلان بأول مرض وبالصبر عليه[3].

ولا يلتفت إلى قول بعض الصوفية بعدم الدعاء للمريض، إذ أن سنة النبي صلى الله عليه وسلم هي أكمل الأحوال، قال ابن حجر في تعليقه على البخاري: لعل البخاري أشار إلى أن مطلق الشكوى لا يمنع رداً على من زعم من الصوفية أن الدعاء بكشف البلاء يقدح في الرضا والتسليم[4].

فالدعاء من أعظم الأسباب في تحصيل مرادات الدنيا والآخرة، ومنها الشفاء من المرض وهو لا ينافي التوكل بل هو من لوزامه، كما لا ينافي التداوي ولا غيره من الأسباب الأخرى ما دام القلب متعلقاً به سبحانه كما كان عليه الصلاة والسلام.

أما طلب الدعاء من الآخرين وهو وإن كان جائزاً إلا أنه أقل مرتبة من الدعاء مباشرة لما فيه من سؤال المخلوقين، وفي حديث المرأة السوداء التي كانت تصرع سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لها، فقال عليه الصلاة والسلام: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوة الله أن يعافيك، فقالت أصبر)[5] قال ابن القيم رحمه الله: "وفي ذلك جواز المعالجة

---

1 (?) رواه مسلم،كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، برقم (2191).
2 (?) رواه مسلم كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفس برقم (2192).
3 (?) تحفة الأحوذي شرح الترمذي (10/8).
4 (?) فتح الباري، (10/124).
5 (?) رواه البخاري، باب فضل من يصرع من الريح، رقم (5823) ومسلم، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، رقم (2576).

والتداوي وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء"[1] وقال ابن حجر: "وفيه دليل على جواز ترك التداوي وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء والالتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير"[2].

وقد يستشكل البعض عدم إجابة الدعاء لدى بعض الناس، فالجواب أن إجابة الدعاء تأخذ ثلاثة أشكال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من دعا بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا مأثم لله أعطاه الله إحدى ثلاث إما أن يغفر له بها ذنبا أو يعجل له في الدنيا وإما أن يدخر له في الآخرة)[3].

كما أن هناك موانع للإجابة كالغفلة، وأكل الحرام كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة)[4] وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لقوله عليه الصلاة والسلام عند فشو المنكر مع عدم الإنكار (ثم تدعون فلا يستجاب لكم)[5].

قال ابن القيم[6]: ولكن ها هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنه أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة أثر في إزالة الداء.

الدعاء يدفع المكروه:

وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعف في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء،

---

1 (?) زاد المعاد، (4/55).

2 (?) فتح الباري، (11/253).

3 (?) مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، (4/53) برقم (2710).

4 (?) المعجم الأوسط (6/311) برقم 6495.

5 (?) رواه ابن ماجه، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برقم (4004) والترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث رقم (2169) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (7070).

6 (?) ابن قيم الجوزية، الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) ص: 21-25.

فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظل، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو والله وغلبتهما عليها.

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه)[1].

فهذا دواء نافع مزيل للداء ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها.

كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس: إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: [illegible][2] وقال: [illegible][3] ثم ذكر الرجل يطير السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام ملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له)[4]..

وذكر عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجاً، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليَّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم؟ ولن تزدادوا مني إلا بعداً.

وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البر، ما يكفي الطعام من الملح[5].

الدعاء من أنفع الأدوية:

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض)[6].

---

1 (?) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب (66) برقم (3479) رواه الحكم في المستدرك (1/493) وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (245).

2 (?) سورة المؤمنون، آية: 51.

3 (?) سورة البقرة، آية: 172.

4 (?) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها برقم (1015) والترمذي كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة برقم (2989) وأحمد في المسند (2/328).

5 (?) صفة الصفوة (1/593).

6 (?) رواه الحاكم في المستدرك (1/492) وقال صحيح، ووافقه الذهبي.

للدعاء مع البلاء مقامات:

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)[1].

وفيه أيضاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء)[2].

وفيه أيضاً من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[3].

من آفات الدعاء:

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله قال: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)[4].

وفي صحيح مسلم عنه: (لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل يا رسول الله ما

---

1 (?) رواه الحاكم في المستدرك (1/492) وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بقوله: زكريا مجمع على ضعفه، وذكر الهيثمي في المجمع (10/146) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، كما ذكر الهيثمي هذا الحديث عن أبي هريرة وقال: رواه البزار وفيه إبراهيم بن خيثم بن عراك وهو متروك.

2 (?) رواه الحاكم في المستدرك (1/493) عن طريق عبدالرحمن بن أبي بكر المليكي، وقال: عبدالرحمن واه، ورواه أحمد في المسند (5/234) والطبراني في الكبير (20/102) وقال الهيثمي في المجمع (1/146): وشهر بن حوشب لم يسمع من معاذ، ورواية إسماعيل بن عياش عن أهل الحجاز ضعيفة.

3 (?) رواه الحاكم في المستدرك (1/493) وقال: صحيح ووافقه الذهبي.

4 (?) رواه البخاري كتاب الدعوات، باب يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، برقم (5981) ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل برقم (2735).

الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء)[1].

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال العبد بخير ما يستعجل) قالوا: يا رسول الله كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي)[2].

الدعاء والقدر:

المقدر قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجرداً عن سببه، ولكن قدر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ودخول النار بالأعمال، وكذلك قدر المولى سبحانه وتعالى للسائلين دعائهم وكشف الضر عنهم.

فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب.

وفي صحيح مسلم في قصة الأخدود أن الغلام قاله له جليس الملك: تدعي أنك تشفي، قال أنا لا أشفي احد، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله[3].

1 (?) رواه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل رقم (2735).

2 (?) رواه أحمد في المسند (3/193-210) وذكره الهيثمي في المجمع (10/147) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في الأوسط، وفيه أبو هلال الراسي وهو ثقة وفيه خلاف، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح.

3 (?) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، حديث رقم (3005).

سادساً: العدوى بين الفقه والطب

العدوى: اسم من الإعداء، وهي ما يعدي من جرب وغيره، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره[1].

والعدوى ثابتة بالطب لجملة من الأمراض وما ثبت في الطب يقيناً فلا يتصور أن يوجد في الشرع ما يعارضه، كما أن ما جاء به الشرع من الأمور القطعية لا يتصور أن يوجد ما يكذبها في أي علم من العلوم.

وما ورد في النصوص الشرعية من أكل النبي صلى الله عليه وسلم مع المجذوم، أو نفي العدوى كقوله عليه الصلاة والسلام: (لا عدوى)[2]. فإنما يجب أن تفسر بالنصوص الأخرى، وقد أنكر البعض أصل العدوى وهو إنكار لما هو واقع، بينما نجد جمهور العلماء يجمعون بينها ويفسرون النصوص بعضها ببعض ، فنجد أن هذا الحديث: (لا عدوى) له تكملة في نفس الحديث الصحيح وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)[3].

بل إن الأحاديث المحكمة تثبت العدوى، كحديث الطاعون الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام: (إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع في أرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه)[4]. وحديث: (لا يورد الممرض على المصح)[5]. وفي صحيح مسلم تحت باب اجتناب المجذوم: أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا قد بايعناك فارجع)[6].

قال البيهقي: وأما ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا عدوى) فهو على الوجه الذي يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى[7].

وقال النووي: فنفى في الحديث الأول العدوى بطبعها ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالى وفعله وأرشد في

---

1 (?) النهاية في غريب الحديث والأثر، ومختار الصحاح، ولسان العرب، مادة (عدو).

2 (?) رواهالبخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف برقم (1993) ومسلم، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، ولا نوء ولا غول، ولا يورد ممرض على مصح برقم (2220).

3 (?) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الجذام برقم (5707).

4 (?) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم برقم (3286).

5 (?) السنن الكبرى، البيهقي (1443).

6 (?) رواه مسلم، كتاب السلام، باب اجتناب المجذوم، (2231).

7 (?) السنن الكبرى، البيهقي (6/203).

الثاني إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته وقدره فهذا الذي ذكرناه من تصحيح الحديثين والجمع بينهما هو الصواب الذي عليه جمهور العلماء[1].

وقال ابن القيم عن الحديث: يتضمن إثبات الأسباب والحكم ونفي ما كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل[2].

وقد ذكر ابن حجر أحد مسالك الجمع بين هذه الأحاديث: أن المراد بنفي العدوى أن شيئاً لا يعدي بطبعه نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تعدي بطبعها من غير إضافة إلى الله فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم اعتقادهم ذلك وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله هو الذي يمرض ويشفي، ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التي أجرى العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها، ففي نهيه صلى الله عليه وسلم إثبات الأسباب وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل بل الله هو الذي أن شاء سلبها قواها فلا تؤثر[3].

1 (?) شرح النووي على صحيح مسلم، (14/214).
2 (?) زاد المعاد، ابن القيم (2/269).
3 (?) فتح الباري، ابن حجر (10/160).

النتائج

وهذه أهم النتائج التي توصلت إليها:

1- مشروعية التداوي والأخذ بأسباب الشفاء وأن ذلك لا ينافي التوكل.

2- أهمية القضاء بالقدر والصبر على المصائب ومن جملتها الأمراض.

3- للمرض حكم عظيمة، وفوائد كبيرة، تجعل المريض يدرك حكمة الله سبحانه في هذه الأمراض.

4- أهمية الدعاء في تحصيل منافع الدنيا والآخرة ومن ذلك الشفاء من الأمراض.

5- الشرع يأمر بالأخذ بالأسباب في اجتناب الأمراض، ومن جملة ذلك الاهتمام بأمر العدوى، ولكن يأتي ذلك باعتبارها سبباً من الأسباب.

المراجع

1- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
2- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ.
3- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. طت).
4- التمهيد، ابن عبدالبر، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، 1387هـ.
5- الجامع الصغير، السيوطي،
6- الحث على التجارة والصناعة و العمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل، أبو بكر أحمد بن محمد الخلال الحنبلي، دار العاصمة، الرياض 1407هـ.
7- الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
8- السنن الكبرى، البيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ - 1994م.
9- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د. طت)
10- مجمع الزوائد، الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.
11- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ - 1990م.
12- المعجم الأوسط، .
13- الموطأ، الإمام مالك، دار إحياء التراث العربي، مصر، (د. طت)
14- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ - 1979م.
15- تحفة الأحوذي شرح الترمذي، محمد بن عبدالرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. طت).
16- تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ - 1985م.
17- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية 1423هـ - 2002م.

18- حصن المسلم.
19- زاد المعاد، ابن القيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ - 1986م.
20- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار الفكر، بيروت، (د. طت)
21- سنن أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت، (د. طت)
22- سنن النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.
23- شرح النووي على صحيح مسلم، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1392هـ.
24- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان أبو حاتم البستي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ - 1998م.
25- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1407هـ - 1987م .
26- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1416هـ - 1996م.
27- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. طت)
28- صفة الصفوة، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.
29- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم، تحقيق زكريا على يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.
30- عمدة القارئ، بدر الدين محمود العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
31- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، (د. طت)
32- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري، دار صادر بيروت، بيروت، ط1، (د. ت)
33- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، نشر إدارة الإفتاء بالسعودية.
34- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، 1415هـ - 1995م.
35- مدارج السالكين، ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1393هـ - 1973م.

36- مسند ابن أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباء، ط1، 1407هـ.
37- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر، (د. طت).
38- موقع إسلام أون لاين، في صفحة أهم الأخبار 5/6/1421هـ.

فهرس الموضوعات